الأدب الفرويدي

Freudian Literature

الدكتور براهيم ناجي [1]

سيداتي وسادتي : يجدر بي قبل أن أتحدث عن « الأدب الفرويدي » أن ألقي نظرة على « النظرية الفرويدية » . لقد مات « سيجموند فرويد » وأصبح لا يتحدث عنه انسان ولا سيما في أيامنا هذه التي يكتوي فيها العالم بنيران الحرب

ولقد اقترنت وفاته باعلان الحرب وهو كيهودي كان قد نفي مع المنفيين . كان شيخاً مريضاً وكان ينتظر جزاء حسناً على ما بذله من جهد ونشاط طيلة حياته . وقف مرة في باريس أمام تمثال ضخم منقوش عليه صورة وحش وأخذ يقابل بين صورة ذلك الوحش وبين الجانب غير الانساني في النفس البشرية . ولعلّ من الغريب أن نعلم انه قد بنى نظريته على « الحب » وتصور بنيانها على هذا الأساس مدى حياته إلا انه عاد في النهاية وتصور وجوب بنيانها على « البغض » ان ذلك الرجل المتفائل قد انقلب في أخريات أيامه الى صورة من أقوى صور التشاؤم . ولقد ذهب قبل وفاته ببضعة أسابيع لزيارة الفيلسوف « برجسون » وكان هذا الفيلسوف الفرنسي الكبير مريضاً . فكانت زيارته له مسلية رائعة . لأن الفيلسوف الفرنسي الكبير والعالم النفساني العظيم قد وقفا الى نتائج واحدة اثناء بحثهما في تلك الزيارة . تلك هي النتائج التي تتعلق بطبيعة الانسانية ومصيرها . فقد اتفقا على أن الجوهر فاسد وان الصندوق مكسوٌّ بالصدأ وانه مهما وضع فيه من جواهر فانها لا تزيل من صدأه شيئاً وان كانت تضيف الى الثروة التي يختزنها هي لا تفعل شيئاً في فساد اللبّ ولا تمحو الصدأ الذي يغلف الصندوق . لم يعش « فرويد » طويلاً ليحكي بتحدث عن كيفية نشوء الحياة من « البغض » ولو عاش لكانت أمامه فرصة سانحة ليقيس بنفسه الجحيم الذي يعيش فيه العالم الآن

فلنقدر أنه يقوم نظريته الأساسية على « الحب » ومتناقضاته وتشعباته . فقد قص كثيرون

(١) [illegible] لا تكاتر [illegible] ناجي قسم اللغة الانكليزية بكلية الآداب بالجامعة المصرية

ان «فرويد» هو الذي اكتشف العقل الباطن ولكن العقل الباطن في الواقع عرف منذ زمن بعيد وان كان قد اتخذ اسماء عديدة . أما فرويد فقد أماط اللثام عن الغموض الذي لازم وظائفه فحدَّد نموه وأقامه على أسس علمية . وهذا لعمري فضل كبير نعزوه اليه . على انهُ قبل ان يستطيع «فرويد» بأبحاثه النفسية كانت «السيكولوجية» مرقعة ترقيعاً فلسفيًّا أو كانت بحثاً من أبحاث الفلسفة يضم أشتاتاً مختلفة لا رابطة بينها . واذا ما ظهر في ثنايا تلك الأبحاث نقص كان الفلاسفة يرجعونه الى أسباب وعبارات تنقصها الدقة ويعوزها الاحكام او انى معان تحتاج الى الوضوح . او كانوا يتناولونه بالتطبيق غير المحكم . هذا ما كان قبل فرويد أما بعده فقد تغير الوضع و نحن نرى الألفاظ الخاصة بالحب والتأثر والانفعالات وما يتبعها من الاصطلاحات «كالأفكار الثابتة» و«الأمراض العصبية والنفسية» وكذلك عناوين الموضوعات مثل الهستيريا والنورستانيا كانت جميعها مختلطة اختلاطاً مشوهاً بل كانت مطبقة تطبيقاً خاطئاً وكانت مفهومة فهماً سقيماً وهذه كلها قد فهمت الآن فهماً صحيحاً وطبقت تطبيقاً حقيقيًّا

ويجدر بي الآن ان ألخص معلوماتنا عن نظرية «فرويد»

اولاً : ان فرويد حدَّد وظيفة العقل الباطن كما انه بين قوته الهائلة . وهو لم يبتكر فكرة العقل الباطن وانما وضع تصميم بنائه وأبان وجه مكانته وقوته الخفية بل ابان «فرويد» ان العقل الباطن له الشأن كلُّ الشأن في حياتنا وان لنشاط العقل الواعي ضئيل الأثر

ومن الخير في هذا المقام أن نصف ذلك البنيان . فالعقل الباطن أشبه ما يكون «بمخزن» يحوي أثمن مواد الحياة . هنالك نجد الغرائز والأخلاق الموروثة والصفات السلالية والذاكرة والذكاء والطرفة وبين هؤلاء جميعاً تنبثق من الأغوار شجرة مورقة مزهرة ندعوها شجرة «الذات» . ومعظم الشجرة غائص في الظلام مغمور في الفناء ولا يرى النور والوعي منها الا أقلها الرقيقة . أما الغرائز فمتساوية في العدد ومتشابهة في الناس جميعاً وتحت براثنها تتحرك «الذات» بما تأثر ولكن لما كانت هذه الغرائز بدائية وغشيمة ولا بد من التحكم فيها فهذه «الذات» تصبح عرضة للانقسام . فجزء منها يمثل عمل «الرقيب» [illegible] وهذا ما تدعوه «الذات العليا» [illegible] أو الضمير — وهو مركز الشعور بالاثم الذي يقترفهُ الانسان دون أن يشعر فيحدون روعهُ عليهُ فهو دائماً يراقب الغرائز من ناحية كما يثير من الناحية الأخرى أمام «الذات» ضروباً من النزاع أشبه بالمنازعات التي تقوم بين أفراد الأسرة الواحدة . وهذا النزاع له شأن عظيم ليس بالقياس الى تفهم الأدب الفرويدي فقط بل بالقياس الى تفهم أنفسنا أنفسنا . ولكي نحلل الحالات العاطفية التي تستولي علينا زمناً طويلاً «[illegible]» ونفهم تماماً التعقيدات المجانية لانفعاض النفس أو لانبساطها مما يمكن أن يصل الى درجة الشذوذ ،

يجب ان نقول ان هناك نزاعاً بين الذات وعالم الحقيقة وبين الذات والذات الغيرا وبينهما وبين الغرائز

ثانياً اعتقد فرويد ان الغريزة الجنسية المنزلة الأولى فدعاها «الطاقة الجنسية» [illegible] ولقد حد تلاميذه من قائدة نظريته بتسميتهم هذه الطاقة باسماء مختلفة منها قوة الحياة «Force [illegible]» أو «الدافع الحيوي» [illegible] كما دعاها برجسون . أو «إرادة القوة» [illegible] كما سماها آخرون . وأعظم مناحي التباين في هذه النظرية أن الحضارة قد حددوها دائمي التظلم على مدى العصور لتحديد «الغريزة الجنسية» وضبطها والافادة منها وهي الغريزة التي تشد لذتها ولا تبالي العرف أو العادة

وأحدث الآراء يؤيد وجود ثلاث غرائز أخرى أقوى من الغريزة الجنسية وهي البغض والتعدي والتحدي وهي تسبب بثورها جميع الاضطرابات العقلية في العالم . وفي الحق نجد أن مهمة الحضارة هي التحكم في دوافع التعدي هذه والسيطرة عليها . أما الحب فأمره متروك لنفسه فالحضارة إذن هي إخضاع الغرائز سواء كانت تصدر عن الحب او البغض

ثالثاً تعتمد نظرية فرويد على الصراع وتوصف بالديناميه أي الدافعة أو المتطورة على قوة التحريك وقد رأينا أن هنالك العالم الداخلي بصراعه الشديد ومراقبه الأعلى وتوزه الدائم ووحشه الضاري الشديد الذي يراقب مراقبة دقيقة . ثم هنالك العالم الخارجي الذي نسميه عادة عالم الحقيقة والواقع . وتعرّف الحياة تبعاً لفرويد بأنها التفاعل المتبادل بين الحقيقة والنفس . فاذا كان هذا التفاعل منتظماً والتبادل بين الجانبين متكافئاً أعتبر الشخص سويّاً [illegible] والواقع إننا نعتبر أسوياء، أو غير اسوياء تبعاً لما نحن اليه من مقدرة على التصرف في عالم الحقيقة فاذا عشنا في عالم خاص بنا وحدنا كنا «داخليين أو باطنيين» [illegible] أو منطوين على أنفسنا وإذا كنا على صلة بعالم الحقيقة أصبحنا «خارجيين» [illegible] فالشعراء والمفكرون والفلاسفة كلهم باطنيون أما العلماء والنقاد فمن الخارجيين

لخط الحب والبغضة الجنسية يعتبر من المنزلة عند بعض الكتاب الفرويديين بحيث يصبح فكرة ثانية . ويزعم هذه المدرسة الروائي «لورنس» وكتبه يضيف الى ذلك شيئاً آخر وهو انه يجاوز ان تمت في جميع مؤلفاته ان الحياة ان هي الا رد فعل بيولوجي من الكائن الجنسية ليشبه وقد صورت «فرجينيا[1]» ووولف» الانسانية كأنها خلية وأشباح تتحرك في جو خاص لخبرة

---

[1] فرجينيا وولف كاتبة انجليزية تتميز [illegible] أنجليزي من قصص حياته [illegible] والكتب وروايته وبين [illegible] كان [illegible] كما زيدهم حيث [illegible]

فيه فليس في رواياتها قصة محبوكة ولكنها صور اشخاص تتراك في جوّ معين

ذلك رأي فرويد ونتائج مدرسته بالنسبة الادب وهو يلخص في الصراع الأبدي في النفوس التي بلغ فيها التوتر مبلغاً كبيراً وبعبارة أخرى النفوس التي فقدت شخصيتها

يروى عن «بول فاليري» الشاعر الفرنسي العظيم انه بدأ حياته كشاعر باطني وان عينيه كانتا بالفعل تلتفتان كأنهُ ينظر الى داخل نفسه . ثم لما بدأ ينظر الى العالم أخذت عيناه في الانفراج تدريجاً واتخذتا شكلاً يتفق وآراءهُ الخارجية وبعبارة موجزة فقد يكون الناس باطنيين او خارجيين تبعاً لعلاقتهم بالحقيقة والواقع

ومن أهم اجزاء النظرية الفرويدية الجزء المتعلق بالطفولة فالطفل صورة مصغرة من الرجل الكامل النمو ولا نستطيع أبداً ان نفصل انفسنا عن صلاتها بالماضي . فأحسن الشعر وأجوده ما كان يعيش على الماضي وخير القصص ما كان غنيًّا بالذكريات القديمة . وقد بيَّن ركس ان اشهر المصورين يحمل في نفسه جرثومة طفولته وبيئته الأولى ووطنه الأول فاذا ما اراد ان يصبح «اجنبيًّا» عن ذاته الأصيلة فانه يخفق عادةً . ومن أهم مميزات الخصائص النفسية في الطفولة خيال الطفل

قد يستمتع الطفل ان ينشىء قصة وينسجها ويصقلها ويبدو ان هذا الخيال فطري الى حد بعيد ولكنه خاصة انسانية موروثة تبلغ حدًّا كبيراً من القوة . وقد بدأت آداب الأمم جميعاً اثراً من نسج الخيال فكانت في البدء وصفاً بسيطاً تتسلسل فيه الحوادث بشكل طبيعي او غير طبيعي بغير محاولة ما للتحليل او التعمق الفلسفي . فاذا ما تمت الحضارة ظهر التحليل النفسي او السيكولوجي وظهرت القصة العلمية والمعقدة ويجدر بنا ان نلاحظ اننا نشعر عن انسانيتنا بتأثير الكحول جرعة جرعة فاذا ما أفقنا أصبحنا من رجال العلم والرياضة واستطعنا الحساب . ولكننا نبدأ في التحدث بعد الجرعة الأولى من الكحول ثم يشتد صخبنا ويزداد حديثنا بعد الجرعة الثانية فاذا ما تناولنا الثالثة والرابعة عدنا الى البربرية والعدوان وهكذا حال الانسان . وبعبارة موجزة يعتبر الخيال أهم خاصية موروثة منذ الطفولة وهو أساس الأدب كله وان تلك التخيلات الطفلية هي زبدة الآداب الكبرى فليس أوديب [illegible] الا لعباً صبيانية ولكنها تظهر عظمة شاكسبير

ومن أهم أسس النظرية الفرويدية «الأحلام» في الطفولة نجد أحلام اليقظة [illegible] وهي القصص الطبيعية التي تحدثت عنها . الآن أحلام الليل لها دلالتها

(١) هي — أي أحلام الليل — تمثل انواع الصراع الخفي والرغبات المكبوتة ولكنها تبدو بشعورية نظراً لأنها تعتبر وسيلة من وسائل الدفاع عن النفس او تظهر في صورة مبالغ فيها

اوصورة رمزية الآن قاموس الأحلام معروف جيداً . ونعتبر احوادث الفرويدية المشهورة أمثلة له . فقد حلمت احدى الفتيات انها علقت ثيابها الى قمة البرج ولكنها سقطت فجأة من ذراعيه . ذلك ما حلمت به ولكنه كان كافياً تماماً لفهم حالتها وعلاجها . وهذا النكت اهم نواحي السيكولوجية الفرويدية فجميعنا نكت وغالبنا ولا سيما حين تكون الرغبة قوية جداً يتعسر ارضاؤها او اذا كان استعداد الشخص ملائماً والعنصر الوراثي متغلباً يحبث يثير الصراع والاضطراب في الذات فيقسمها او يفقدها صفتها الشخصية تماماً

(ب) وترتبط الأحلام ارتباطاً وثيقاً بالطفولة . ومعظم محتويات الأحلام ذكريات الطفولة او الذكريات الجنسية وغيرها . وعلم الأحلام مهم جداً في الأدب الفرويدي . وفي الحق إن الغالين في التجديد يرون انهُ لما كان الأدب وصفاً وتصويراً للحياة وانهُ لما كانت الحياة حلماً من الأحلام ينشأ من ذلك انهُ ليس هناك بداية أو نهاية ولا هناك ارتباط أو تسلسل منطقي في الحوادث . وعلى ذلك يجب أن يكون الأدب أشبه بالأحلام أي انهُ يجب ان يكون رمزياً مشتتاً لا ترتبط فيه الحوادث . وليس لهُ بداية ولا نهاية ولا تسلسل وانما هو نظرة خاطفة كما لو كنت تنظر من طائرة محلقة . وزعيم هذه المدرسة هو « جيمس جويس »[1]

ومن أهم نواحي مذهب « فرويد » خط الحب الشهير الذي يجب علينا جميعاً أن نفهمه فهو يكون في البداية متركزاً في الذات، ثم يصبح متركزاً في الأبوين، ثم في الجماعة، ثم في الأفراد من نفس الجنس، ثم في الأفراد من الجنس الآخر . إلاَّ أنهُ ليس هنالك حد فاصل تماماً بينها وأي التواء في هذا الخط الفاصل أو تعطيل يؤدي الى كارثة نفسية . فهذه الأعراقات تتصل دائماً بالسنوات الخمس الأولى من حياة الطفولة التي تشكل كل مميزات هذا الخط فيما بعد

وينقسم الكتاب الى طوائف مختلفة تقرب أو تبعد عن التذوق . فهناك كتَّاب الأحلام الذين يكتبون من غير ارتباط أو غرض محدود ، وهناك الكتَّاب الذين تملكتهم فكرة الجنس ويتدفقون معها الى حد بعيد، وهناك الكتَّاب المرضى بأعصابهم فيصورون لنا عالماً ذاتياً ليس فيه شيء سليم ، وهناك كتَّاب البيئة الذين يطلقون اعظم النشأن بالجو الذي نعيش فيه ونتحرك . واخيراً نجد الكتَّاب الذين يكتبون عن الهستيريو والرغبات المقيدة

وأغلب ذلك من الكاتبات كالسيدة فيكي باوم التي تصوّر لنا عالماً تحطمت قواه وخابت فيه الآمال . ولعلي بهذا القدر أكون قد وفقت الى شيء عن الأدب الفرويدي

---

(١) جيمس جويس زعيم مدرسة ادبية حققت انتشاراً كبيراً . وهو ايرلندي ولد سنة ١٨٨٢ وتلقى تعليمه الادبي في احد معاهد اليسوعيين في ايرلندا . ثم سافر الى باريس وتزوج بالنمسوية